للأب متى المسكين

عيد نياحة القديس أنطونيوس الكبير[1]

منذ أيام كان عيد نياحة القديس أنطونيوس الكبير ...

ما هي الرسالة الخالدة التي تصلنا عبر مئات السنين من حياة أنطونيوس؟

رسالة واحدة تحمل حقيقة واحدة: أن الطبيعة البشرية قد اختبرت أنها قد اكتسبت فعلًا قدرات جديدة تفوق قدراتها الطبيعية العادية ...

أي قدرة الطبيعة البشرية على تنفيذ وصية الله، ولكن بمعونة الروح القدس ...

فأول ما تبصر في أنطونيوس، تُبصر إنجيلًا حيًّا مقروءًا، عمره ١٠٥ أعوام في طاعة الإنجيل، نعم، فالعمر لا يُقاس – في العهد الجديد – إلَّا بالأيام التي أطاع فيها الإنسان الإنجيل!

آية واحدة سمعها أنطونيوس الفلاح المصري الشاب (كان عمره ١٨ سنة)، وخرج يناجي بها نفسه ...

ونفَّذ أنطونيوس الوصية الأولى كما هي، لأنها خرجت من فم يسوع، وكان في تنفيذه جبَّارًا، لكن جبروته كان في حقيقته نيَّةً صادقةً لمحبة وطاعة الله، ومبادرة أولى لتنفيذ الوصية حرفيًّا وفي الحال، ثم امتزج كل هذا بقوَّة الروح القدس الذي سهَّل الطريق كله فيما بعد ...

هذه الآية أنتم تعرفونها: «اِذْهَبْ بِعْ كُلَّ مَا لَكَ وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ» (مر ١٠: ٢١).

واستمر أنطونيوس في حياته الطويلة ينفِّذ وصية ليتعلَّم وصية جديدة، إلى أن صار

(١) كلمة ألقيت على الآباء الرهبان بوادي الريان بعد عيد أنبا أنطونيوس في سنة ١٩٦٩م.

هو إنجيلًا حيًّا مقروءًا فيه الوصايا بجملتها منفَّذة ومُمارسة عمليًّا ...

وصار أنطونيوس النموذج الباهر الصادق للمسيحية ... وما هي المسيحية؟ هي إيمان، طاعة للرب يسوع المسيح، ليس من أجل مكافأة، بل حبًّا فيمن مات من أجله وقام. بل إن مجرَّد فعلك وصية المسيح يجعلك في الحال حبيبًا للرب: «أَنْتُمْ أَحِبَّائِي إِنْ فَعَلْتُمْ مَا أُوصِيكُمْ بِهِ» (يو ١٥: ١٤)، وهنا «أنتم أحبائي» ليست مكافأة بل هي تقرير حال واقع أن فعل الوصية هو في حد ذاته اقتراب الرب منا وملازمته لنا.

لم يكن أنطونيوس بالكائن الفريد. فيه ما ليس فينا، بل نحن كلنا مثله أينما نكون ووقتما نكون. كان شابًا ونحن شباب وكان حوله مال ومقتنيات وعالم وطموح، وهذا هو حالنا. إذن فما هو سر أنطونيوس؟

... لقد تفاعل أنطونيوس في الحال والتو مع كلمة الله التي سمعها، والتي كانت تلح عليه برفق أن يسير وراءها، فسار وراءها إذ آمن بالله الذي تكلَّم! ... والإنسان لا يُترك لنفسه حين تواجهه كلمة الله، لأن الروح القدس هو الذي يتوسَّط بين كلمة الله النارية وبين طبيعتنا الهشَّة الضعيفة. لذا فإن أول بادرة من إرادة الإنسان للانحياز إلى جانب الوصية يقدِّسها الروح الناري وينفخ فيها نسمة حياة ونسمة قدرة فائقة تتحوَّل في الإنسان إلى عزيمة وتنفيذ. بل إن الروح القدس – في الحقيقة – هو أيضًا الذي يسبق ويدفع الإنسان سرًّا لحب الوصية وتنفيذها.

غالبًا ما يكون فشلنا في تنفيذ الوصية راجعًا إلى تخاذلنا نحن وإلى عدم رغبتنا نحن في مجرَّد رفع القدم الأولى لنبدأ المسير وراء الله.

آه ... ماذا كان يحدث للعالم لو صار فيه كل مسيحي إنجيلًا حيًّا متحرِّكًا عاملًا بوصية الإنجيل المكتوب؟ ...

ولكن هل يمكن أن نكون نحن خميرة صالحة بين يدي الله؟ ...

ها الإنجيل يُقرأ في كل قداس، والروح القدس متهيِّئ للعمل في كل وصية، فماذا يبقى؟

(١٩٦٩)